المقالة الحادية عشرة
فى قوله سبحانه : ﴿و هو العلى العظيم﴾

و فيه لطائف :

اللطيفه الأولى
فى كيفيّة نظمه بما سبق

و هو أنّه سبحانه بعد ما أثبت و أظهر المخلوقات من العرش و الكرسى علواً فى المرتبة و عظمة فى الخلقة ، اظهاراً لكمال القدرة و الحكمة ، تردى برداء الكبرياء فى العزّ و العلاء ، و اتّزر بازار العظمة فى الرفعة و السناء ، و هو أولى و أحق بالمدحة و الثناء ، فقال تعالى : ﴿و هو العلىّ العظيم﴾ أى له العلو فى الشأن والعظمة و السلطان ، فمن علا فى الآخرة فباعلائه قد علا ، و من عظم فى الدنيا فبتعظيمه قد عظم و استولى ، فسبحان ربّنا العظيم ، و سبحان ربّنا الأعلى .

اللطيفة الثانية
[علوّ الحق و عظمته صفتان اضافيّتان]

اعلم أنّ علوّ الحق و عظمته صفتان اضافيّتان ثابتتان له تعالى بالقياس الى اعتقاد العبد و تصوره و اثباته الوجود لغيره تعالى ، و إلّا فليس لما سواه وجود فى جنب وجوده تعالى حتى يتّصف بالعلّو بالقياس الى غيره . نعم ، الانسان يتصوّر بقوته الوهميّة لنفسه وجوداً مستقلا و بواسطة وجوده الموهوم يتوهّم و يعتقد للعالم و أفراده وجود مستقل يقيس اليها وجود الحق ، فيصفه بالعلو و العظمة ، ثمّ بقدر ما يظهر له قصور وجوده و ضعفه و قصور الوجودات الامكانيّة و ضعفها يزيد فى نظره علوّ الحق و عظمته ، و لهذا المعنى قيل : «إنّ ظهور الانسان سبب خفاء الحق فى هذا العالم» ، فبقدر انكساره و افتقاره و دثوره و فنائه يظهر له وجود الحق و بقائه و علوّه و كبريائه .

و قيل أيضاً : إنّ هذا العالم عالم الخيال يتراءى فيها الأشياء على وجه الانعكاس و الانتكاس ، فيرى المتبوع تابعاً و التابع متبوعاً ، و المستور ظاهراً و الظاهر مستوراً ، بل الموجودات معدوماً والمعدوم موجوداً ، فالحقّ موجود و الخلق مفقود ، و فى الخيال يكون بعكس هذا ، و كذا الحق ظاهر جلىّ و الخلق مستور خفىّ ، و فى الحس بالعكس .

فاذا أخذ الانسان فى النزول و النقصان و الهبوط فى منازل الامكان، و عاد قليلا الى ماله بحسب ذاته من الخلل و الفقدان، استأنف للحق فى شهوده علواً و عظمة، جلالاً و كبرياءاً، ففى كلّ فناء يظهر عليه للحق بقاء، و فى كلّ تواضع ينكشف عليه للربّ تعالى كبرياء، ففى كلّ فناء يظهر عليه للحق بقاء، و فى كلّ تواضع ينكشف عليه للرب تعالى كبرياء، أو لاترى أنّك تقول فى انحناك بالركوع: «سبحان ربّى العظيم» و فى هويك بالسجود: «سبحان ربّى الأعلى» و هكذا قليلا قليلا الى أن يضمحل وجوده بالكليّة و يبقى الوجود الحقّانى للواحد القهار.

و من هاهنا يعلم أنّ قصارى مجهود العابدين و العارفين فى عبادتهم و علومهم ليس إلّا تصحيح نسبة الامكان و حفظ مرتبة الفاقة و الافتقار و العجز و الانكسار، لئلّا يبقى فى شهودهم وجود للأغيار، و لايكون عندهم فى الدار غيره ديّار، فقوله تعالى: ﴿و هو العلى العظيم﴾ بالنظر الى قوم لهم بقايا الوجود الوهمى و قوله تعالى: ﴿و هو الواحد القهار﴾ (الرعد(١٣): ١٦) بالنظر الى قوم آخرين قبل ظهور الساعة، و قوله: ﴿كلّ شىء هالك إلّا وجهه﴾ (القصص(٢٨): ٨٨) بحسب نفس الأمر أزلا و أبداً بالقياس الى الخلايق جميعاً.

اللطيفة الثالثة

[فى تقسيم العلو بالمكانى و المعنوى]

اعلم أنّ العلو علوّان: علوّ مكانى و علوّ معنوى وجودى.

و الأوّل ذاتى للمكان و عرضى للجسم، و لذا قال سبحانه فى حق ادريس عليه السلام: ﴿و رفعناه مكاناً عليّاً﴾ (مريم(١٩): ٥٧)، فوصف مكانه بالعلوّ، و أعلى الأمكنة مكان «المحدّد للجهات» و المحدّد أعلى الأجسام مكاناً، فكلّ ما هو أقرب منه كان أعلى فى المكان ممّا هو أبعد، و يقابله مكان الأرض و هو أسفل السافلين، و الواقع فيه طبعاً كالأرض يكون تحت الأجسام، فكلّ ما هو أقرب منها كان أسفل.

و أمّا الثانى: فهو ذاتى للحق و هو حقيقة الوجود، و عرضى للماهيّات الموجودة، فاطلاق قولنا «الموجود» على الماهيّات كما يطلق قولنا «العالى» على الأجسام، و اطلاقه على الواجب عند العارفين كاطلاق «العالى» على مكان المحدّد، اطلاقه على المعلول الأوّل عندهم أو على الواجب عند جمهور المتكلمين كاطلاق «العالى» على جرم المحدّد،

و اطلاقه على ما سوى المعلول الأوّل ـ و هو الحقيقة المحمديّة كما مرّ ـ كاطلاق «العالى» على غير المحدّد.

و خرج من اطلاق الوجود بالفعل ماهيّة الهيولى، إذ وجودها عبارة عن الهاوية المظلمة، أى نفس السفل و القوّة و الهبوط، كما خرج من اطلاق العالى جسميّة الأرض و مكانه الذى هو أسفل السافلين.

و قد وصف الله هذه الأمّة المرحومة بالعلّو المعنوى و المنزلة الوجوديّة فقال: ﴿و أنتم الأعلون و الله معكم﴾(محمّد(٤٧): ٣٥)أى: فى هذا العلّو، و هو سبحانه مقدّس عن العلوّ المكانى، فيكون المراد العلوّ الوجودى، إذ موجوديّة الممكن إنّما يحصل بمعيّة الواجب تعالى معه إمّا ابتداءً أو بتوسط معيّته بالأشياء الآخر، و هى العلل المتوسّطة بينه و بين المعلول الأخير ـ فانّ معيّته تعالى بكلّ متقدّم فى الوجود أقدم من معيّته الى المتأخر، لكن المراد هاهنا من «المعيّة» ما يكون بغير وسط؛ لأنّه فى مقام المدح.

و وجهه أنّ الانسان الكامل أعلى الموجودات، لأنّه خرق الوجود و سلک سبيل الله و أحاط بالكلّ و صارت مرتبته جامعة لجميع المراتب، فله المعيّة الذاتيّة بالنسبة الى البارى جلّ اسمه و العلو فى المنزلة و المعنى، فيكون فوق الكلّ، فقد جمع له بالعمل العلو المكانى ـ لأنّ مكانه الجنّة و هو أعلى الأمكنة ـ و بحسب العلم الموجب للاحاطة بالحقائق المعنوى.

و الملائكة المقرّبون لهم العلو بحسب الرتبة، لأنّهم وسائط جود الحق و رحمته، فقال لابليس: ﴿استكبرت أم كنت من العالين﴾ (ص(٣٨): ٧٥)؛ لأنّ جوهر ابليس من الجواهر المتعلّقة بعالم الظلمات، فمنزلته دون منزلة الأنوار العقليّة المرتفعة عن التعلّق بغير الحق، فلها السلطنة الكبرى على القوى المتعلّقة بالعالم الأدنى.

فظهر أنّ الحق تعالى «علىّ» لذاته، لأنّ وجوده عين ذاته، و الانسان الكامل «علىّ» بعلوّ الحق تعالى. هذا فى مقام الفرق و الاشتراک فى الوجود و العلو.

و أمّا فى مقام الجمع، فهو الواحد القهّار لاغير، لأنّه لايوصف إلّا بالصفات التنزيهيّة، فلا علوّ كما لا سفل له، و الاشتراک المذكور فى أصل العلوّ فى الجملة بين العبد و الربّ فى مقام الفرق، و لابدّ من اعطاء حق الربوبيّة و العبوديّة من العلوّ بأنّه ذاتى للربّ و عرضى للعبد، و لهذا أمر الله تعالى أشرف الممكنات ـ و هو الذى له المنزلة العظمى فى المعيّة للحق و العلوّ المعنوى دون غيره إلّا بوسيلته أن يتأدّب بأدب المعبوديّة و يسبّح الله عن

النقص الامکانی، فقال مخاطباً إیّاه: ﴿سبّح اسم ربّک الأعلی﴾(الأعلی(۸۷):۱) و ظنّی أنّ منشأ استغفار رسول الله ﷺ کما ورد فی الحدیث هو هذه المعیّة العالیة التی هی مظنّة الاشتراک بین العبد و الربّ فی العلوّ المعنوی، فیحتاج العبد الأعلی و الملک المقرّب فی کلّ حین الی تذکّر عظمة الله و علوّه الاستغفار عن ذنب وجوده الامکانی، لئلّا یقع فی السکر عن الشکر، و فی الفکر عن الاحسان، و النسیان عن الوجدان، فیجری علی لسانه شیء من السکریات، فینحط عن مقام القرب و المحبّة الی مقام البعد و المذلة ـ نعوذ بالله من الحور بعد الکور.

اللطیفة الرابعة
فی بیان تقدیسه تعالی عن العلو المکانی

و فیه دلائل کثیرة أوردنا اثنین منها:

أحدهما: أنّ علوه لو کان مکانیّاً لکان لایخلو إمّا أن یکون جسماً متمکناً أو نفس المکان.

و الأوّل باطل، لترکّب کلّ جسم إمّا بحسب نفس الجسمیّة المشترکة کما هو مذهب جمهور الحکماء، و إمّا بحسب تعیّنه الخاص و نحو وجوده النوعی أو الشخصی کما هو رأی الجمیع، فانّ کلّ نوع من الجسم مرکب فی الخارج إمّا من جوهرین، أو جوهر و عرض علی اختلاف القولین فی جوهریّة الصورة النوعیّة و عرضیّتها، یکون أحد الجزئین یجری مجری الجنس و الأخری یجری مجری الفصل، و الترکیب مطلقاً ینافی الوجوب الذاتی کما علمت.

و الثانی لایخلو إمّا أن یکون متناهیاً فی جهة فوق أو غیر متناه، و الأوّل مستحیل لاستلزامه أن یکون المفروض فوقه أعلی منه، فلایکون هو أعلی من کلّ ما عداه، بل یکون غیره أعلی منه مکاناً هذا محال ضرورة، و یلزم أیضاً أن یحتاج فی تعیّنه الی ما یحدّد جهته.

و إن کان غیر متناه فیکون ممتنعاً لامتناع اللاتناهی فی المقدار بالبراهین العقلیّة القاطعة الدالة علی تناهی الأبعاد و المقادیر.

و لنذکر من تلک البراهین ما هو أخف و أجود و أوثق و أنسب بهذا المقام و هو أنّه لو کان بعد غیر متناه یمکن لنا أن نفرض ذلک البعد الی جهة الفوق و نفرض فیه نقط غیر متناه، فلایخلو إمّا أن یحصل فی تلک النقط نقطة واحدة لانفرض فوقها نقطة أخری و إمّا أن لایحصل.

فان کان الأوّل کانت هذه النقطة آخر النقاط، فیکون طرفاً لذلک البعد، فیکون ذلک البعد متناهیاً و قد فرضناه غیر متناه هذا خلف.

و إن لم یوجد فیها نقطة إلّا و فوقها نقطة أخری کان کلّ واحدة من تلک النقط المفترضة فی ذلک البعد سفلا، و لایکون فیها مایکون فوقاً علی الاطلاق، فحینئذ لایکون لشیء من النقط المفروضة فی ذلک البعد علو مطلق، و إذا لم یکن «مطلق» لم یکن «مضاف»، و ذلک ینفی صفة العلویّة، و قد وصفنا أنّه سبحانه علیّ بمعنی العلو المکانی هذا خلف الدلیل الثانی.

الدلیل الثانی: أنّ کلّ وصف یکون ثبوته لأحد الأمرین بذاته و للآخر بتبعیّة الأوّل کان ذلک الحکم فی الذاتی أتم و أکمل، و فی العرضی أقلّ و أضعف، فلو کان علو الله تعالی بسبب المکان لکان علو المکان الذی بسببه حصل هذا العلو للّه تعالی صفة ذاتیّة له، و لکان حصول العلو لله سبحانه حصولا بتبعیّة حصوله فی المکان، فکان علو المکان أتم و أکمل من علو ذات الله تعالی، فیکون علو الله ناقصاً و علو غیره کاملا و ذلک محال.

فهذان الدلیلان قاطعان فی أنّ علو الله تعالی یمتنع أن یکون بالجهة، و ما أحسن ما قال أبومسلم بن بحر الاصفهانی فی تفسیر قوله تعالی: ﴿لمن ما فی السموات و الأرض قل لله﴾(الأنعام(۶): ۱۲) قال: «و هذه یدلّ علی أنّ المکان و المکانیات بأسرها ملک الله و ملکوته، ثمّ قال: ﴿و له ما سکن فی اللیل و النهار﴾(الأنعام(۶): ۱۳) و هذا یدلّ علی أنّ الزمان و الزمانیّات بأسرها ملک الله تعالی و ملکوته، فتعالی و تقدّس عن أن یکون علوه بسبب المکان و تقدّمه بسبب الزمان، إذ المکان و الزمان کلاهما من مخلوقات الله الواقعة فی أدنی المراتب.

فتعالی ذاته و صفاته عن أن یکون مکانیاً أو زمانیاً، فبقی أن یکون علوه بحسب وجوب الوجود و الالهیّة، و سرمدیّته بحسب القیومیّة الذاتیة.

و علی هذا القیاس معنی عظمته، فانّها أیضاً بحسب المهابة و الجلالة و القهر و الکبریاء، و یمتنع أن یکون بسبب المقدار و الحجم، لأنّه إن کان غیر متناه فی کلّ الجهات أو فی بعض الجهات فهو محال، لمّا ثبت بالقواطع البرهانیّة تناهی الابعاد فی کلّ الجهات، و إن کان متناهیاً فی الجهات کلّها کانت الأحیاز المحیطة بذلک المتناهی أعظم منه، فلایکون مثل هذا الشیء عظیماً علی الاطلاق، فالحق سبحانه و تعالی أعلی و أعظم من أن یکون من جنس الجواهر و الأجساد تعالی عمّا یقوله الظالمون علواً کبیراً.